



بقلم: أ.د/ عرفان شهزاد  
صاغة بالعربية: عثمان فاروق

## فكر الأستاذ غامدي: مراجعة لبعض الاعتراضات

وصف الأستاذ غامدي القرآن الكريم بأنه "قصة إنذار الرسول" من حيث موضوعه. وقد وجه اعتراض على هذا الرأي، حيث رُئي أن اعتبار القرآن كتابًا تاريخيًا محضًا يضعف من عالميته، ويحصره في نطاق الروايات التاريخية (أساطير الأولين)، مما قد يجعل القارئ العادي غير قادر على الشعور بارتباطه به، إذ لا يجد فيه خطابًا موجّهًا إليه بشكل مباشر.

يعود هذا الاعتراض إلى الخلط بين موضوع القرآن ومضمونه. فموضوعه يتمثل في الهداية الإلهية الشاملة والإنذار بالآخرة، بينما جاء مضمونه في سياق سرد إنذار الرسول. وهذه الخاصية تمثل حقيقة واقعية، إذ إن عناية المفسرين بروايات أسباب النزول تؤكد البعد التاريخي للقرآن وتبرز ارتباطه بالأحداث التي نزل فيها.

إذا تأملنا عبارة "قصة إنذار الرسول" بكاملها، بدلاً من التركيز على كلمة "قصة" وحدها، فستتضح الفكرة بوضوح. فالقرآن ليس مجرد سرد تاريخي، ولا يقتصر على عرض سيرة الرسول، بل هو في جوهره تجسيد لمسيرة الإنذار الإلهي. فهو "قصة إنذار الرسول" التي تتوجه بدعوته إلى مختلف فئات البشر، وفي سياقها تتجلى تعاليم الدين وأحكام الشريعة

أن القرآن هو "قصة إنذار الرسول"، فهو ليس مجرد سيرة ذاتية ولا سجلاً

تاريخيًا، بل هو تجسيد حي لمسيرة الدعوة الإلهية. جاء الرسول حاملاً رسالةً عالميةً، فوثق القرآن تفاصيل رحلته في تبليغها، متتبعاً جهوده، والصعوبات التي واجهها، ومواقف الناس بين الإيمان والجحود.

وفي ثنايا هذه القصة، نرى كيف أدّى الرسول أمانته بأعلى درجات الإخلاص، وكيف تباينت استجابات الناس لدعوته؛ فمنهم من آمن وسلك درب التزكية والتهذيب حتى نال رضا الله، ومنهم من قامت عليهم الحجة فكفروا واستحقوا العقاب. كما يعرض القرآن كيف نزلت التعاليم الإلهية وفق منهج تربوي متدرج، وكيف صبر المؤمنون على الابتلاء، فلجؤوا إلى الله في الشدائد، وشكروه عند الفتح، وتلقّوا التوجيه عند الخطأ، فتابوا وأصلحوا أنفسهم، فالوا المغفرة والرحمة.

وعلى النقيض، يصوّر القرآن أحوال المعرضين عن الحق، الذين انساقوا خلف أهوائهم ومصالحهم، وأعماهم التعصب، فتمادوا في العدا، وارتدوا قناع النفاق حتى انكشفت حقيقتهم، واستحقوا الجزاء العادل. وكأننا أمام محكمة إلهية، تُوزن فيها الأعمال، وتُحكّم فيها المصائر بعدل الله المطلق.

وبذلك، فالقرآن ليس مجرد كتاب في الأخلاق والتشريع، بل هو كتاب حي نابض بالحياة، لا ينقل التعاليم الدينية بأسلوب نظري مجرد، بل يعرضها مجسدةً في مشاهد حية وتجارب إنسانية، تقرّبها من الواقع، وتمنحها بُعداً عملياً. فهو لا يقدّم للقارئ الدين فقط، بل يظهر له نماذج واقعية لتطبيقه، تلامس أعماق النفس البشرية، مما يجعله متصلاً بكل فرد، ويجعل طريقته في ترسيخ الدين أكثر تأثيراً وفاعلية.

تكشف قصة إنذار الرسول كيف تجلّى تدخل الله بوضوح في تلك المرحلة، حيث تحققت وعوده وتجلّت تحدياته، فكانت شاهداً قاطعاً على وجوده ووحدانيته وحتمية يوم القيامة. وقد حفظت هذه الوقائع في كتاب خالد، ليبقى حجةً قائمةً على مر العصور، يذكر البشرية بأن لهذا الكون إلهاً واحداً وضع لها منهجاً، وسيحاسبها عليه يوم القيامة، تماماً كما أقام ميزان العدل في الدنيا على أمة من الأمم، ليكون ذلك برهاناً لا يدحض على سننه وحكمته وعدله المطلق.

ذكر الأستاذ غامدي في مقدمة تفسيره "البيان" أن القرآن، من حيث مضمونه، هو قصة إنذار الرسول"، كما أوضح:

"إن المحكمة الإلهية التي تجلّت في أرض العرب ببعثة النبي ﷺ قد سجّلها القرآن بدقة وإحكام، وظلّت محفوظة فيه إلى الأبد. من هذا المنظور، يثبت القرآن في أعلى درجات اليقين هذه القضية الأساسية للدين، وهي أن محكمة الله ستقام يوماً ما على العالم بأسره بنفس الطريقة." (البيان، ١٢/١)

هذا هو الركيزة الأساسية التي يقوم عليها الدين، والدافع الذي يحفز الفرد على الالتزام به. فمتى ترسّخ في قلبه اليقين بالمحاسبة في الآخرة، تولّدت لديه الحاجة إلى تزكية نفسه. وهنا يوضح القرآن أن هذه التزكية تتحقق باتباع النهج ذاته الذي سار عليه السابقون، حين طبقوا تعاليم هذا الدين والتزموا بها.

على عكس أي سيرة عادية، فإن عنوان "قصة إنذار الرسول" لا يعني أن التوجيهات والأحكام الواردة فيها مقيدة بزمانها فحسب، ولا ينبغي أن يثير ذلك أي قلق بشأن تعميمها. فالرسول جاء برسالة إلهية موجهة إلى جميع البشر، مما يجعل كل ما ورد في قصته محتملاً لأن يكون عامّاً، ما لم يثبت تخصيصه بمخاطبي ذلك العصر. ولهذا، من الضروري التمييز بين ما هو خاص بأهل زمانه في سياق الإنذار النبوي، وما يبقى صالحاً لكل زمان ومكان.

وقد قام الأستاذ غامدي بتحديد الأحكام التي اختصت بزمن الرسالة كنتيجة لقانون الرسالة وقانون الإتمام الحجة، مما يزيل أي التباس أو خلط في هذا الشأن. وبهذا، لا يبقى مجال للدعاء بأن هناك محاولة لتحنيط الدين أو تجميده في حقبة تاريخية معينة، إذ إن المنهجية المتبعة تضمن بقاء تعاليمه حية وفاعلة على مر العصور.

هذه قائمة بالأحكام الخاصة التي تم تمييزها وتوضيحها:

١- **حكم القتال مع قوم الرسول:** لم يكن القتال ضد قوم الرسول حرباً تقليدية، بل كان عقوبة إلهية أنزلت عليهم بعد أن أتم الرسول الحجة عليهم. لذلك، لا يحق للمسلمين عموماً استخدام القوة ضد أي قوم يرفضون الإسلام بعد تبليغهم لهم. ومع ذلك، يبقى الجهاد ضد الظلم والعدوان واجباً عامّاً، لأن

علته، وهي مقاومة الظلم، غير مقيدة بزمن معين.

٢- قطع العلاقات مع الكفار بعد إتمام الحجّة: بعد أن أتم الرسول الحجّة، تم إنهاء جميع العلاقات والمعاهدات مع الكفار، وكان منع المسلمين من موالاته الكفار وأهل الكتاب نتيجة طبيعية لهذه القطيعة. ومع ذلك، لا يوجد في الإسلام حكم عام يمنع إقامة علاقات صداقة أو تعامل حسن مع غير المسلمين بوجه عام.

٣- التفريق بين شهادة المسلم وغير المسلم: كان التفريق في قبول الشهادة بين المسلم وغير المسلم في زمن الرسالة مرتبطًا بمقاطعة منكري الحق بعد إتمام الحجّة عليهم. لكن مع زوال العلة التي استدعت هذا الحكم، لم يعد هناك ما يوجب التمسك به في الوقت الحاضر.

٤- التفريق بين الزوج المسلم والزوجة غير المسلمة: في عهد النبوة، فرّق بين الزوج المسلم وزوجته غير المسلمة نتيجةً للقطيعة ذاتها التي فرضت بعد إتمام الحجّة، ولا يمكن اعتبار ذلك حكمًا عامًا ثابتًا يمتد ليشمل جميع الأزمنة والظروف.

٥- منع التوارث بين المسلمين وغير المسلمين: لم يكن المسلم وغير المسلم يتوارثان في زمن الرسول، وكان ذلك جزءًا من إجراءات القطيعة نفسها. ولكن باعتبار أن هذا الحكم كان مرتبطًا بظروف محددة، فلا يمكن اعتباره مبدأً عامًا ثابتًا في كل الأحوال.

٦- حكم الردة: لم يكن الارتداد عن الإسلام جريمة مستقلة، بل كان يُعد صورة من صور الكفر، وعقوبة الكفر للمشركين كما وردت في سورة التوبة كانت القتل. لذلك، طبقت العقوبة نفسها على المرتدين في ذلك السياق، لكنه حكم خاص بزمنه، ولا يعني بالضرورة سريانه في جميع العصور والأحوال. من المهم الإشارة إلى أن الأستاذ غامدي يتبنى الفهم الذي كان سائدًا لدى الصحابة والعلماء المتقدمين فيما يخص خصوصية حجاب أمهات المؤمنين. وقد ظهر رأي تعميم الحجاب في عصور لاحقة. أما آية الجلباب، فهي لا ترتبط بقانون الرسالة أو قانون إتمام الحجّة، كما قد يظن بعض النقاد، وإنما تقوم على دلالة

لغوية واضحة. فقد بيّن القرآن أن العلة في الأمر بتغطية الجسد كانت دفع أذى الفساق، وهو تعليل صرح به الله تعالى في النص القرآني. وبناءً على ذلك، فإن هذا الحكم يُفهم في سياق تلك الظروف أو ما يشابهها، ولا يعد توجيهًا عامًا لكل الأحوال.

### التمييز بين الأحكام العامة والخاصة

التفريق بين الأحكام العامة والخاصة في سرد الأستاذ غامدي ليس اجتهادًا غير منضبط أو اختيارًا عشوائيًا، بل هو عملية علمية دقيقة تستند إلى مبادئ واضحة تتعلق بدلالة الألفاظ، وعلل الأحكام، وطبيعة تطبيقاتها المختلفة. وقد شرح هذه المنهجية تفصيلًا في كتبه ومحاضراته، مما يزيل أي لبس أو خلط حول هذا الموضوع.

عندما يقال للقارئ العادي إن القرآن لا يخاطبه مباشرة، بل يتوجه أولاً إلى المخاطبين الأوائل عبر سرد تاريخي لأحداث الرسالة، فقد يشعر بشيء من الإحباط. ومع ذلك، فإن اعتبار المرء نفسه المخاطب المباشر بكل آية قد يؤدي إلى استنتاجات خاطئة، بل وربما إلى تصورات بعيدة عن الحقيقة.

فعلى سبيل المثال، عندما يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"، فإن هذا النداء يشمل الصحابة المخلصين، كما يشمل المؤمنين ضعيفي الإيمان، بل وحتى المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام. فإذا اعتقد القارئ العادي أنه المخاطب في كل مرة، فقد يجد نفسه في حيرة بين معاني النصوص المختلفة وتطبيقها على واقعه. وبالمثل، حين يخبر الله نبيه بأنه سينتصر على أعدائه وسيعلو دينه في جزيرة العرب، وحين يبشر الصحابة بالنصر والتمكين والخلافة، فقد يخطئ المسلم العادي حين يظن أن هذه الوعود تخصه هو أيضًا. وربما يدفعه هذا التصور إلى الدخول في صراعات غير متكافئة، متوقعًا أن تتكرر معجزات الماضي، وعندما يواجه الفشل، يجد نفسه في أزمة بين الشك في إيمانه والتساؤل عن تحقق وعود الله.

ومن الأمثلة الأخرى، أن الله يطمئن نبيه بأن العسر يعقبه اليسر، وهو وعد تحقق في سياق النبوة. لكن البعض يطبق هذه الآية على مشكلاته الشخصية،

كلازيمات المالية، متوقعًا انفراجًا حتميًا، رغم أن هذه الوعود ليست قاعدة مطلقة لكل موقف فردي.

كما أن إعلان الله بأن الحق سينتصر قد يدفع بعض المسلمين إلى الاعتقاد بأنهم سينالون العدالة حتمًا في قضاياهم، فيمضون سنوات في المحاكم بانتظار "انتصار الحق"، لكنهم قد لا يحصلون عليه، ما يجعلهم يتساءلون عن تحقق وعود القرآن في واقعهم.

وفي حالات أخرى، حين تحدى النبي منكري الحق بالمباهلة بأمر الله، قام بعض المسلمين في عصور لاحقة بتكرار هذا التحدي، لكنهم لم يشهدوا أي عقاب إلهي مباشر على خصومهم، مما زادهم حيرة وتساؤلًا.

يقدم القرآن رسالة متكاملة من خلال سرد قصة نبي عليه الصلوة والسلام، حيث يثبت بها الحق، ويؤكد على المساءلة في الآخرة، ويضع منهجًا واضحًا للتزكية والتطهير. غير أن هذه المعاني العميقة قد تغفل، ليحمل القرآن والإسلام مسؤولية الإخفاق في مواجهة مشكلات الحياة الدنيا.

### تصنيف العلوم الدينية في فكر الأستاذ غامدي

أثيرت بعض الاعتراضات على تصنيف العلوم الدينية في فكر الأستاذ غامدي، وهو تصنيف يعد محطة جوهرية في تطور العلوم، حيث يسهم في ضبط المفاهيم وتنقيح الأسس المنهجية للاستدلال. وقد كان الأستاذ غامدي دور محوري في هذا المجال، إذ أسهم في إزالة اللبس بين مختلف المكونات الدينية، وأعاد هيكلية المفاهيم وفق أسس دقيقة، مما حدّ من الخلط بين الدين والتقاليد الدينية. وقد حظيت هذه الجهود بتقدير واسع من قبل أهل العلم، الذين أدركوا أهميتها ودقتها في تنظيم الخطاب الديني وترشيد مساراته.

وقد لخص الدكتور عمار خان ناصر أبرز نتائج هذا التصنيف في النقاط التالية:

١- التمييز الواضح بين الدين الذي جاء به النبي ﷺ وبين العلوم والأفكار التي نشأت لاحقًا بناءً عليه، مما يحول دون رفع التقاليد الدينية إلى مرتبة الدين نفسه.

- ٢- إخضاع الاتجاهات الفكرية الدينية ونتائجها للنقد المستمر في ضوء المصادر الأساسية، لضمان المراجعة الموضوعية والتقويم العلمي.
- ٣- إعادة إحياء التمييز بين السنة المتواترة التي استقر عليها تعامل الأمة وأخبار الأحاد، مما يعزز اليقين التاريخي للأسس الدينية.
- ٤- وضع أطر علمية أكثر دقة للتعامل مع نص القرآن الكريم، مما يسهم في منع إقحام عناصر غير متعلقة به في تفسيره وتأويله.\*

يعكس هذا التصنيف منهجًا علميًا يسعى إلى إعادة بناء الفهم الديني وفق رؤية أكثر وضوحًا ومنهجية، مع التركيز على التمييز بين الأصول الشرعية والموروثات الفكرية.

### التأويل الواحد للقرآن الكريم

يقوم فكر فراهي على مبدأ التأويل الواحد للقرآن، وهو تصور يستند إلى نظم الكلام، حيث يكون لكل لفظ أو جملة معنى محدد وثابت، لا يحتمل تعدد التأويلات المتضاربة. وقد أثار هذا المبدأ اعتراض بعض النقاد، رغم أن أهمية السياق في فهم النصوص تُعدّ من المسلّمات العقلية واللغوية. يؤكد الأستاذ غامدى أن القرآن ينبغي أن يُفهم وفق هذا المنهج، كما هو الحال في أي خطاب منضبط، بحيث تتحدد مراداته بدقة. غير أن المعارضين يرون ضرورة استثناء النص الإلهي من هذا القانون اللغوي، ليبقى مفتوحًا على معاني غير قطعية، مما يتيح لكل شخص أن يسقط عليه تفسيره الخاص. ولو تأملنا هذا الطرح بعين الناقد، لوجدناه يعرض كلاً من العلم والإيمان لخطر جسيم.

إن نظم الكلام هو الدرع الذي يحمي النص القرآني من الفوضى التأويلية، ويؤكد مكانته كمرجع لفصل النزاعات الدينية. فإذا لم يكن بالإمكان استخراج معاني دقيقة وحاسمة منه، فإن ادعاءه الفصل بين الناس في أمر دينهم يصبح بلا معنى، وتتعطل وظيفته التشريعية والتوجيهية.

\* رابط صفحة الفيسبوك للدكتور محمد عمار خان لنشر محل الدراسة

لطالما اعتمد علماء التفسير، عند مواجهة تعدد الدلالات، على معايير علمية دقيقة لترجيح أحدها، ولم يتركوا المسألة مفتوحة بلا ضوابط. وهذا بالضبط ما يؤكد عليه فكر الأستاذ غامدي، حيث يبني التأويل على أسس نظم الكلام والقواعد اللغوية القطعية للوصول إلى الفهم الصحيح. ومع ذلك، تبقى إمكانية الخطأ واردة، لكن حتى في هذه الحالة، لا يكون أي تأويل آخر مقبولاً إلا إذا استند إلى المنهج ذاته. فالتأويل، في نهاية المطاف، لا بد أن يكون واحداً، وإلا فقد النص دلالاته وتحول إلى ساحة تأويلات لا نهاية لها.

### القطع في نتائج الفكر

يثار اعتراض على الأستاذ غامدي بأنه يقدم أدلته ونتائج أسلوبه يتسم بالجزم والقطع، وكأنها حقائق مطلقة لا تحتمل المراجعة أو النقاش. غير أن الواقع يكشف أن اليقين الذي يعبر عنه لا يخرج عن إطار الاحتمال المعرفي الذي يراعيه كل باحث ملتزم بالمنهج العلمي، حيث تستند استنتاجاته إلى أسس علمية ومنهجية دقيقة.

ولو نظرنا بإنصاف، لوجدنا أن هذا القطع واليقين، الذي ينتقد عليه الأستاذ غامدي، هو في الحقيقة سمة مشتركة بين جميع أهل العلم. بل إن ناقديه أنفسهم لا يخلو خطابهم من الجزم بأرائهم، مما يجعل هذا الاعتراض، في حقيقته، غير موضوعي.

### العلاقة بين الدين والفرد والمجتمع

تثار تساؤلات حول رؤية الأستاذ غامدي للعلاقة بين الفرد والمجتمع، حيث لا ينظر إلى الفرد بوصفه كياناً مستقلاً، بل باعتباره جزءاً لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي، فالمجتمع في جوهره ليس إلا تجمعاً للأفراد المتفاعلين فيما بينهم. وعندما يتشكل المجتمع، تصبح الأحكام الشرعية ذات البعد الاجتماعي موجهة إليه، كما هو موضح في كتاب الأستاذ غامدي "الميزان"، ضمن فصول "قانون السياسة"، "قانون الجهاد"، و"قانون الاقتصاد" وغيرها.

وفقاً لهذا المنظور، يبدأ الدين بالفرد لينعكس أثره على المجتمع، وليس

العكس، أي أنه لا يفرض على الأفراد من خلال المجتمع أو عبر أدوات السلطة. وبناءً على ذلك، لا يمكن، وفق هذه الرؤية، تسخير سلطة الدولة لإجبار الرجال على إعفاء اللحى أو النساء على ارتداء الحجاب، لأن الالتزام بالتشريعات الدينية ينبغي أن يكون نابغاً من إرادة حرة وإيمان داخلي، لا من فرض سلطوي أو إكراه اجتماعي.

### موقف الأستاذ غامدي من الهيمنة السياسية للمسلمين

يطرح اعتراض على فكر الأستاذ غامدي مفاده أنه لا يؤيد سعي المسلمين إلى الهيمنة السياسية عالمياً. غير أن موقفه في هذا الشأن واضح؛ فهو يرى أن المسلمين، إن أرادوا تشكيل كتلةٍ سياسي يضمن لهم مكانة مرموقة بين الأمم، فذلك أمرٌ مشروع من حيث كونه خياراً سياسياً. لكن الإشكال ينشأ عندما يضاف على هذه الرغبة طابع الوجوب الديني، إذ لا يوجد في النصوص الشرعية ما يلزم المسلمين بالسعي إلى إقامة هيمنة سياسية. فالدين لم يجعل ذلك جزءاً من التكاليف الشرعية، وقد تناول غامدي هذه المسألة بالنقد والتوضيح المفصل.

أما فيما يتعلق بالمسلمين الذين يواجهون الاضطهاد، فإن غامدي ينصحهم بفهم الواقع الجيوسياسي إدراكاً عميقاً، إذ لا يمكنهم مواجهة قوى تفوقهم عتاداً وعداداً بالوسائل العسكرية وحدها، كما أن الدول الإسلامية الأخرى لا تملك القدرة ولا الإرادة لتقديم دعم حقيقي لهم. في ظل هذه الحقائق، فإن الخيار الأكثر حكمةً هو تبني النضال السلمي، والتركيز على التقدم العلمي والاقتصادي، مع تجنب الانجرار إلى صراعات مدمرة لا تؤدي إلا إلى مزيد من التدهور والمعاناة. يود الأستاذ غامدي أيضاً أن يرى المسلمين في عزة وكرامة، لكنّه يعتقد بأن الطريق إلى ذلك يمرّ عبر العلم والسلم، لا عبر دروب الحروب والدماء.

